عصر الجاحظ (١)

— ٣ —

« الانقلاب الفكري »

بقي علينا الكلام على الناحية العجيبة من نواحي عصر الجاحظ أي على ناحية استفاضة العلم ، لقد جاءت العربية من هذه الجهة ببرهان بليغ على صلاحها للحياة وعلى استعدادها لقبول ما يندمج فيها من صور الفن والعلم ، وأعجب من هذا كله استعداد العرب للدخول في كل طور من أطوار الحياة ، ولا شك في ان التطور من علامات الحياة ففي أسرع من رد الطرف نقل معاوية الملك من شكل الى شكل فبعد ان كان هذا الملك مصبوغاً بصباغ بدوي صبغه بصباغ حضري ، كلنا نعلم رغبة امير المؤمنين عمر بن الخطاب في الخشونة سواء أكانت هذه الخشونة في الملابس ام في المآكل ام في المراكب ولكن معاوية لما كان عاملاً لعمر على الشام تلوّن بالوان البيئة اي بيئة الشام فما لبث ان فخّم ملكه على نحو تفخيم الروم حتى ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبدالرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما في موكب ثقيل فجاوزهما عمر حتى أُخبر فرجع اليه فلما قرب منه نزل اليه فأعرض عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال عبدالرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر فقال : يامعاوية انت صاحب الموكب آنفاً مع مابلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك قال : نعم ياامير المؤمنين قال: ولمَ ذاك ، قال : لأنا في بلد لانمتنع فيه من جواسيس العدو ولابدّ لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني بذلك أقمت عليه ، وان نهيتني عنه انتهيت فقال : لئن كان الذي تقول حقاً فانه رأي أريب وان كان باطلاً فانها خدعة ادبب

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما آمرك به ولا انهاك عنه فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه . فقال : لحسن موارده جشمناه ماجشمناه [١] » .

ففي زمن غير طويل رتّب معاوية الملك في الاسلام وفي زمن غير طويل ادخلت طائفة من خلفاء بني العباس ميراثنا الادبي في باب لم يدخله من قبل حتى رفل ملك العرب وادبهم في برد قشيب في قرن او في قرنين وما هو قرن وبعض قرن في استيقاظ الامم .

كان الادب قبل بني العباس لايحبط الا باخبار العرب وايامهم واشعارهم وخطبهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شاكل اضراب هذه الامور فكان فيه شيء من الشعور والعاطفة وانما كان يعوزه التبسط في مذاهب الفكر كالفلسفة والرياضيات والسياسة والتوحيد والطب واشباه ذلك فلما جاء ابوجعفر المنصور شرع يحيى بن البطريق وابن جبرائيل الطبيب وابن المقفع وابن ماسويه وسلاّم الابرش وباسيل المطران في الترجمة فنقلوا الى العربية بعض كتب المنطق والطب ولما جاء المأمون اندفق يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وقسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وحنين بن اسحاق واسحاق بن حنين في نقل الآثار فترجموا كتب بقراط وجالينوس وارسطاطاليس وأفلاطون .

وقد كان الجاحظ يرقب كل حركة من حركات عصره فلم يغفل عن شيء مما كان يجري في ايامه فكأنه صورة ناطقة تفصح لنا عن أحوال عصره فقد أشار الى التجديد إشارة خفية فقال [٢] :

وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسناً وبعضها ماانتقص شيئاً ... وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان حتى انتهت الينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

وكما انه لم يغفل عن التلميح الى النقل فكذلك لم يغفل عن التلميح الى الآثار المنقولة فأشار الى كتب إقليدس وجالينوس والمجسطي مما تولاه الحجاج وأشار الى مافي ايدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص٧) .

(٢) الحيوان (الجزء الاول ص٣٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأبواب الاصباغ والعطر والاطعمة والآلات[١] وأشار الى كتاب الكون والفساد وكتاب العدوي لأرسطاطاليس والى كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون وفلان وفلان وهؤلاء ناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون[٢].

ولقد كان يحذر كذب التراجمة وزيادتهم وجهل المترجم بنقل لغة الى لغة[٣] فمن حذره هذا يتبين لنا وجه من وجوه الترجمة في عصره واليكم بعض ماجاء في بعض كتبه من هذا المعنى[٤].

« ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له : ان الترجمان لا يؤدي ابداً ماقال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده ولا بقدر ان يوفيها حقوقها ويؤدي الامانة فيها ويقوم بمايلزم الوكيل ويجب على المجرى وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها والاخبار عنها على حقها وصدقها الا ان يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف الفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وابوقرة[٥] وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل ارسطاطاليس ولا بد للترجمان من ان يكون ببيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي ان يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيها سواء عليه ومتى وجدناه ايضاً قد تكلم بلسانين علمنا انه قد أدخل الضيم عليهما لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتأخذ منها وتعترض عليها وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة وانما له قوة واحدة فان تكلم بلغة واحدة استغرقت تلك القوة عليهما وكذلك ان تكلم باكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به اقل كان أشد على المترجم وأجدر ان يخطيء فيه ولن نجد البتة مترجماً بفي بواحد من هؤلاء العلماء هذا قولنا في كتب الهندسة

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٤٠) .
(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ١٦٧) .
(٣) الحيوان (الجزء السادس ص ٩٠) .
(٤) » » الاول ص ٣٨ .
(٥) هكذا وردت ولعلها ابن قرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والتنجيم والحساب والنحون فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين ... »

هذا ما أبقاه لنا الجاحظ من آثار الاشارة الى الترجمة والى الكتب المترجمة والى التراجمة والى آداب الترجمة في عصره وان هذه الآثار على قلتها لتستطيع ان تصور لنا ناحية من نواحي الحياة التي عاشتها العربية في ذاك العصر فندرك ان العربية خرجت من شكل الى شكل بدخول عناصر فيها لم يكن لها عهد بامثالها من قبل .

لاشك في ان الكلام على النقل وعلى الكتب المنقولة في عصر الجاحظ يطول مداه فمن أراد التوسع في هذا فليرجع الى الفهرست لابن النديم والى طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة والى أخبار الحكماء للقفطي ولكن كيف كان الامر لانجد لنا مندوحة عن الايجاز في الكلام على هذه الناحية الجديدة من نواحي ميراثنا الأدبي التي طبع بها هذا الميراث بطابع خاص ظهرت آثاره على الفكر العربي حتى مزجوا الادب والدين بالعلم فلبس الادب بهذا المزج لباساً لم يكن له في ماضيه .

وقبل الكلام على النقل من اليونانية وغيرها من اللغات لابأس بالاشارة الى ان الجاحظ قد عاش في عصر تمّ فيه اختلاط العرب ببعض الأعاجم فقد اتصلت باهل هذا العصر أخبار فريق من الاعاجم كالصقالبة والترك والروم والهند وفارس والحبشان والنوبة وأصناف السودان وتناهت اليهم اخبار الاكاسرة وعرفوا كثيراً من صفات نساء الروم وفارس والهند واستجلبوا العبيد من السند واشتروا الغلمان للطبخ وربما سموا بعض سككهم باسماء الأعاجم فقالوا : سكة اصطفانوس وربما سمعنا اسماء غير عربية مثل طيمانوا ومنويل وسموعين وتوفيل وميخائيل وغير ذلك وقد خالط بعض اليونانيين العرب في أمصارهم فعرف العرب طائفة من نوادرهم .

***

استفاضت الروح اليونانية في آفاق آسية بعد فتوح الاسكندر فأصبحت الاسكندرية زمناً غير قصير ملجأ يلجأ اليه اهل العلم والبحث وأشباه هذه الطبقات من الرجال الذين أبعد غاياتهم تثقيف عقولهم وترويض أذهانهم وعلى الرغم من العوارض التي عرضت لدور الكتب فأدخلت الضيم عليها بقيت طائفة من التصانيف مستفيضة في الناس تدل على ان فكر المتقدمين لايزال حياً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد كانت بلاد الشام والعراق داخلة في حضارة يونانية فكانوا في أديرة الرهبان السريانيين ينقلون من اليونانية الى السريانية في احقاب متطاولة كتب فلسفة اليونانيين وعلومهم ، اما تراجمة العرب فقد كانوا في عصر الترجمة يعمدون الى الكتب السريانية فينقلونها الى العربية .

وقد كان المجمع العلمي الذي أنشأه كسرى الاول سنة ٣٥٠ في جندي سابور ينشر في الشرق علوم اليونانيين و يثبّت رغبة القوم في ذوق الفلسفة والطب .

وبقيت مدينة حرّان في بلاد مابين النهرين وثنية فاجتمع آلهة اليونانيين وآلهة رومة الى آلهة الساميين القديمة وكانت حرّان ايضاً في القرون الوسطى ناحية حضارة يونانية فكان اهلها ينصرفون خاصة الى الرياضيات والى علم الفلك .

من هذا كله يتبين لكم ان الثقافة اليونانية هي التي فعلت فعلتها في ميراثنا الادبي وأريد بهذا ان العرب وجدوا في آفاقهم في اول يقظتهم مستودعاً لآثار عقول اليونانيين فاستخرجوا من هذا المستودع ما قدروا عليه .

لا ريب في ان نقل هذه الآثار قد شرع فيه القوم على زمن المنصور وانما المأمون هو اول خليفة في الاسلام كانت له جلائل الآثار في استيقاظ العقول من رقدتها فقد أنشأ في بغداد بيت الحكمة وهو اشبه شيء بجامعات هذا العصر وجعل لها دار كتب ورصد فلك فنقلت على ايامه كتب من السريانية الى العربية كانت في الاصل منقولة عن اليونانية فزادت هذه الكتب في ادبنا النامي الاصول المختلف الأشكال .

نعم نهض المأمون بالمسلمين نهضة لم يقتصر فضلها على العرب وحدهم وانما انتقلت اصداؤها الى آفاق اوربة الراقدة فاستفاقت اوربة من نومها بفضل الاندلس وتلك الايام تداولها بين الناس .

واظن ان الخوض في ذكر مانقل من الكتب الى العربية يمتد بنا مداه كما قلت لكم وانما اجتزيء بالاشارة الى العلوم التي دخلت العربية حتى تعرفوا طبيعة الطابع الذي طبعت به ثقافتنا فقد نقل العرب كتب افلاطون وارسطاطاليس وبقراط وجالينوس واقليدس وارخميدس وبطليموس وهي في موضوعات شتى في السياسة والتوحيد والمنطق والشعر والخطابة والأخلاق والطب والرياضيات والنجوم واضراب ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان منهم من يذهب الى بلاد الروم فيتعلم اليونانية كحنين بن اسحق وهو ابن صيدلاني نصراني من الحيرة فقد سافر الى آسية الوسطى وتعلم اليونانية وعاد الى بغداد فكان طبيباً للمتوكل وكتب في الطب والفلسفة .

انشأت قراءة كتب ارسطاطاليس رغبة في الفلسفة فكانت الفلسفة في المسلمين فاشية في طبقات قليلة من جمهرة المفكرين والعلماء اي لم تستفض في طبقات العامة الا ان رجال الفكر انصرفوا اليها بمجامعهم .

وقد طبقوا الفلسفة على السياسة فمن أقدم المؤلفات السياسية التي تشتمل على بعض نظرات فلسفية كتاب « سلوك المالك في تدبير الممالك » لصاحبه شهاب الدين بن ابي ربيع وضعه على ايام المعتصم ومنه نسخة في باريز وقد طبع في مصر .

ومشت الرياضيات الى جنب الفلسفة فنقل العرب الهندسة الى لغتهم من كتب اليونانيين ولا سيما كتب اقليدس وربما اخذوا الحساب عن الهند .

اقدم العلماء الرياضيين من العرب انما هو الخوارزمي الذي كان على زمن المأمون فقد طلب اليه المأمون ان يؤلف خلاصة الكتاب الهندي « سدهاند » ونقلت كتبه في الجبر والحساب الى اللاتينية واستفاضت في اوربة ومن الخوارزمي اشتق الفرنجة كلمة (Algorithme) .

ثم وضعوا كتباً في النجوم ففي بدء القرن الثالث ظهر كتاب ابي يوسف يعقوب القارشي اما الطب فقد جاء المنصور بطبيبه بختيشوع من فارس الا ان الطب العربي عملت فيه عوامل هندية فكان للرشيد طبيب هندي وهو منكه .

ومن جندي سابور جاء ابوزخريا يحيى بن ماسويه فكان ينقل عن اليونانية كتباً كثيرة ووضع كتباً من عنده ككتاب نوادر الطب[1] .

وقد نقلوا ايضاً عن النبطية وعن العبرانية .

هذه خلاصة النقل في عصر الجاحظ فما اكثر الأفكار الحديثة التي دخلت في ميراثنا الفكري فاستلزمت صوراً حديثة تمثلها للعقول وتقربها من الأذهان فبعد ان كان العقل لاصقاً بصور المادة لا يحيط الا بما تعاينه الحواس انسلخ بعض الشيء عن هذه المادة وتعلق

(١) ادب العرب للاستاذ هوار (Huart) ص ٣٧٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالامور المجردة فتتغلغل في باطنه فتفكك اجزاء النفس وقواها وحسّها وتفكيرها واخلاقها وطمح الى مافوق البشر والى مافوق العالم فنظر في المبادئ والنتائج ونظر في العلل والقوانين ومن عكف على دراسة اللغة وأطوارها في هذا العصر الذي نقلت في خلاله آثار اليونانيين وآثار الهند وآثار فارس وغيرهم من الامم الى العربية لا يتمالك ان يدهش لبيان العرب وان يقول : ما أمرنَ هذا البيان ! وما اقدره على الحياة ! دخلته عناصر لا عهد له بها فقبلها ولم يعجز عن تمثيلها وتصويرها وهنا يظهر لنا سلطان العربية في أوضح مظاهره فما ضاقت العربية في يوم من ايامها عن تصوير نتائج القرائح وثمرات الخواطر .

والى جنب هذه العلوم التي استفاضت في الجمهور خرافات لا بأس بذكر طائفة منها نقتبسها عن كتب الجاحظ نفسه فكأن العلم لم يفش في الطبقات كلها . بذكر نبذ من هذه الخرافات نحيط بناحية من نواحي عصر الجاحظ فكأن الجاحظ لم يغادر لنا شيئاً من عصره نفوتنا معرفته ومن هذا يتبين لكم مقدار تدقيقه فهو الذي نبهنا على كل ناحية من نواحي عصره على حرية الفكر وعلى صلاح الايام وعلى فساد الدهر وعلى كثرة الزندقة وعلى شيوع العلم وعلى ذيوع الخرافات .

فمن هذه المعتقدات جلب الخنافس للرزق قال ابو عثمان[1] :

« سقط الى المقاييس ان الخنافس تجلب الرزق وان دنوها دليل على رزق حاضر من صلة او جائزة او ربح او هدية او حظ فصارت الخنافس ان دخلت في قمصهم ثم نفذت الى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً وا كثر ماعندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق ويظن بعضهم انه اذا دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ان ذلك كلما كان اكثر كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها اكثر فانظر أية واقية دائمة حافظة واي حارس واي حصن ان شاء الله تعالى لها بهذا القول واي حظ لها حين صدقوا هذا التصديق والطمع هو الذي أثار هذا الامر من مدافنه والفقر هو الذي سبّب هذا الطمع واجتلبه ولكن الويل لها ان ألحت على غني عالم وخاصة ان كان مع حدوثه وعلمه حديداً عجولاً وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد البطش الملحّ في ذلك الجهير الصوت الذي تسميه العوام امير الذبان فكانوا يحتالون في صرفه وطرده اذا اكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه فانه

(١) الحيوان (الجزء الثالث ص١٠٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يغير فلما سقط اليهم انه مبشر بقدوم غائب و برء سقيم صاروا اذا دخل المنزل واوسعهم شراً لم يهجه احد منهم واذا أراد الله عزّ وجلّ ان ينسيء في اجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما انه اذا أراد ان يقصر عمره هيأ له سبباً فتعالى الله علواً كبيراً » .

ومن هذه المعتقدات طول العمر بطول الاذن قال الجاحظ[1] :

« قد سمعت من يذكر ان اذن الانسان دليل على طول عمره حتى زعموا ان شيخاً من الزنادقة لعنهم الله تعالى قدموه لتضرب عنقه فعدى اليه غلام سعدي كان له فقال : أليس قد زعمت يامولاي ان من طالت أذنه طال عمره . قال : بلى . قال : فهاهم يقتلونك . قال : انما قلت ان تركوه » .

وكانوا يعتقدون انه اذا كان في الدار دبك أبيض أفرق لم يدخلها الشيطان ويقولون من اكل لحم سنور اسود لم يضره سحر واذا دخنت الدار بالدخنة التي سموها بدخنة مريم او باللبان لم يكن عليها لعمّار الدار سبيل وان من نام بين البابين تخبطه العمار وخبلته الجن[2] .

والعامة تزعم ان لبس النعال السود يورث النسيان[3] .

وكأن أمثال هذه المعتقدات لم تختص بها العامة وانما لهج بها فريق من العلماء والمؤلفين حتى قال الجاحظ[4] :

« ومما لا اكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها الا كل وقاح اخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب يقرأها ويدارس اهل البصرة ويتحفظها زعموا ان الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن اسحق : انا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد قال : ومن العفص مايكون مثل الاكر وقد خبرني بذلك غيره وهو يشبه تحول الانثى ذكراً والذكر أنثى وقد ذكرت العرب في أشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والاجناس وهم أخبر الخلق بشأن الضبع فكيف تركت ماهو أعجب وأظرف وقد ذكرت العلماء الضباع

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١١٧) .
(٢) » » الثاني ص ٧٥ .
(٣) » » الخامس ص ١١٥ .
(٤) » » السابع ص ٤٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في مواضع من المتيا لم نر احداً ذكر ذلك واولئك باعيانهم هم الذين يزعمون ان النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوقت به واذا لم يأتنا في تحقيق الاخبار شعر شائع او خبر مستفيض لم نلتفت اليه » .

وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة فقال [1] :

« وزعم بعض المفسرين ان السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا سأل ربه الفرج فأمره ان يأمر الاسد فيعطس ولما عطس خرج من منخره زوج سنانير من ذكر وأنثى خرج الذكر من المنخر الايمن والانثى من المنخر الايسر فكفاهم مؤنة الجرذان ولما تأذوا برائحة نجوهم شكوا ذلك الى نوح فشكا الى الله تبارك وتعالى فأمره ان يأمر الفيل فبسلح فسلح خنازير فكفوهم مؤنة رائحة ذلك النجو وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص » .

واذا كانت اشباه هذه المعتقدات نافقة عند اهل الحضر فاستفاضتها في الاعراب اولى فالاعراب لا يصيدون يربوعاً ولا قنفذاً ولا ورلاً من اول الليل وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء ... فان قتل الاعرابي قنفذاً او ورلاً من اول الليل او بعض هذه المراكب لم يأمن على نخل إبله ومتى اعتراه شيء حكم بانه عقوبة من قبلهم [2] .

وتزعم الاعراب ان الضفدع كان ذا ذنب وان الضب سلبه اياه [3] .

وتزعم المجوس ان سومين الذي ينتظرون خروجه ويزعمون ان الملك يصير اليه يخرج على بقرة ذات قرون ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود النمور لا يقول : هراً وبراً حتى يأخذ جميع الدنيا [4] .

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ١٠٦) .

(٢) » » السادس ص ١٤ .

(٣) » » الخامس ص ١٥٣ .

(٤) » » السادس ص ١٦٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net